﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: 259]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيَةُ مَرْدودَةٌ إلى جُمْلَةِ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، فهِيَ تَمْثيلٌ لتِلْكَ الدُّرَّةِ البَهِيَّةِ، ولمَّا قَرَّرَ سُبْحانَهُ في الآيَةِ السَّابِقَةِ تَفَرُّدَهُ بالرُّبوبِيَّةِ والأُلوهِيَّةِ، كان لا بُدَّ مِنْ إثْباتِ البَعْثِ بمَثَلٍ قُرْآنيٍّ واضِحٍ للعِيانِ، وهَذا التَّناسُبُ بَيْنَ المِثْلَيْنِ في إثْباتِ التَّوْحيدِ واليَوْمِ الآخِرِ، هُوَ ما يَتَّسِقُ مَعَ تَلازُمِيَّةِ الإيمانِ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ في الآياتِ القُرْآنِيَّةِ، مِنْ خِلالِ هَذا التَّمْثيلِ البَديعِ، وما يُذْكَرُ في القُرْآنِ مِنْ هَذِهِ التَّلازُمِيَّةِ مَرْدودٌ فَهْمُهُ إلَيْها، فخُيوطُ الآيَةِ مَعْذوقَةٌ بالسَّابِقِ القَريبِ تَمْثيلًا لَهُ، ومُرْتَبِطَةٌ بالآياتِ اللاحِقَةِ تَأْصيلًا وبَيانًا لَها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَّ﴾: المُرورُ: هُوَ المُضِيُّ والاجْتِيازُ بالشَّيْءِ دونَ تَوَقُّفٍ، ويُقالُ لِما هُوَ خِلافُ الحَلاوَةِ والطِّيبِ: المُرُّ؛ فمَرارَةُ الشَّيْءِ تَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ المُكْثِ فيهِ، وسُمِّيَ الأَمَرُّ لأَنَّهُ غَيْرُ طَيِّبٍ، ثُمَّ سُمِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّ شِدَّةٍ وشَديدَةٍ بهَذا البِناءِ، يَقولونَ: أَمْرَرْتُ الحَبْلَ: فَتَلْتُهُ، وهُوَ مُمَرٌّ، والمَرُّ: شِدَّةُ الفَتْلِ، والمَريرُ: الحَبْلُ المَفْتولُ[1].

وقَدِ اسْتُعْمِلَ المُرورُ في القُرْآنِ فيما كان اجْتِيازًا سَريعًا دونَ تَوَقُّفٍ، فمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: 12]، وقَوْلُهُ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: 38]. وأَمَّا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب: المفردات: (مرر).

خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 189]، فقَدْ ذُكِرَ المُرورُ باعْتِبارِ الحَمْلِ الخَفيفِ قَبْلَ الإثْقالِ: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾، فكَأَنَّ الآيَةَ عَقَدَتْ مُقارَنَةً بَيْنَ زَمانِ الخِفَّةِ وزَمانِ الإثْقالِ، فكانَ الأَوَّلُ سَريعًا، والثّاني بَطيئًا.

وقَد اسْتَعْمَلَ القُرْآنُ ما كانَ لجُزْءٍ يَسيرٍ مِنَ الزَّمانِ مَرَّةً، ومَرَّتَيْنِ، قالَ تَعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: 56]، وقال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: 13]، وقال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: 80]، وقال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: 5]، اسْتِبْشارًا بسُرْعَةِ الزَّوالِ.

2) ﴿خَاوِيَةٌ﴾: الخاوِيَةُ: الخالِيَةُ مِنَ السُّكّانِ والبِناءِ بَعْدَ امْتِلاءٍ، والخَلاءُ يَتَحَقَّقُ بَعْدَ التَّهَدُّمِ والخَرابِ، وأَصْلُ الخَواءِ: خَلاءُ البَطْنِ، يُقالُ: خَوَى بَطْنُهُ مِنَ الطَّعامِ يَخْوِي خَوًى، وخَوًى أَيْ: تَهَدَّمَ ووَقَعَ، والخَواءُ: الهَواءُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، والهَواءُ الذي بَيْنَ الأَرْضِ والسَّماءِ، قال تَعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: 52]، أَيْ: خالِيَةً بَعْدَ هَلاكِهِمْ[1].

3) ﴿عُرُوشِهَا﴾: العَرْشُ: السَّقْفُ، وفي الأَصْلِ: شَيْءٌ مُسَقَّفٌ، وجَمْعُهُ عُروشٌ، وهُوَ يَدُلُّ عَلى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، ثُمَّ يُسْتَعارُ في غَيْرِ ذَلِكَ، وسُمِّيَ مَجْلِسُ السُّلْطانِ عَرْشًا اعْتِبارًا بعُلُوِّهِ، قال تَعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، وقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: 38]، وقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: 41][2].

والمعنى هنا: تهدُّم القرية واشتدادُ خرابها.

4) ﴿لَبِثْتَ﴾: اللَّبْثُ: المُكْثُ والإبْطاءُ والتَّأَخُّرُ، ولَبِثَ لَبْثًا، واللُّبْثُ: البَطِيءُ، وهُوَ الإقامَةُ في المَكانِ وطولُ المُلازَمَةِ[3]، قال تَعالى: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الأحزاب: 14]، ويُطْلَقُ عَلى اللَّبْثِ الزَّمانيِّ وهُوَ الأَكْثَرُ في اسْتِعْمالِ القُرآنِ، قال تَعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: 16]، وقال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: 40]، وقال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: 23].

5) ﴿يَتَسَنَّهْ﴾: يَتَغَيَّر، مَأْخوذٌ إمَّا من (سنن)، وأصله: يتَسَنَّنُ بثلاثِ نونات، فاسْتُثْقِلَ

(1) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (خوى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خوى).
(2) الراغب، المفردات، وابن فارس، المقاييس: (عرش).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (لبث).

توالي الأمثال، فَأُبْدِلت الأخيرةُ ياءً، كما قالوا في تَظَنَّنَ: تظَنَّى، وفي قَصَّصْت أظفاري: قَصَّيْت، ثم أُبْدِلت الياءُ ألفاً لتحرُّكِها وانفتاح ما قبلَها، ثم حُذِفَتْ جزماً، والهاء للسكت، ومثله قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]، أي: متغيِّر مُنْتِن، وإمَّا مأخوذٌ من السَّنَةِ، على القول بأنَّ لامَها المحذوفةَ واوٌ، ولذلكَ تُرَدُّ في التصغير والجمع، قالوا: سُنَيَّة وسَنَوات، أو أنَّ لامها هاءٌ؛ رَوى أَبو عُبَيْدٍ عَنِ الأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قالَ: إذا حَمَلَتِ النَّخْلَةُ سَنَةً ولَمْ تَحْمِلْ سَنَةً قيل: قَدْ عاوَمَتْ، وسانَهَتْ، فمَنْ قال في السَّنَةِ: سانَهَتْ؛ فالهاءُ مِنْ أَصْلِ الكَلِمَةِ، ومَنْ قال في السَّنَة: سانَيَتْ؛ فالهاءُ زيدَتْ لبَيانِ الحَرَكَةِ، ولَيْسَ مِنَ الأَسَنِ وتَغَيُّرِ الرِّيحِ في شَيْءٍ، وإلَّا لكانَ يَتَأَسَّنُ[1].

ومَعْناهُ: التَّغَيُّرُ والفَسادُ مِنْ طولِ مَرِّ السِّنينَ، ومُضِيِّ الأَعْوامِ عَلَيْه.

6) ﴿نُنشِزُهَا﴾: النَّشْزُ[2]: المَكانُ المُرْتَفِعُ العالي مِنَ الأَرْضِ، ومِنْهُ: نَشَزَ فُلانٌ عَنْ مَقَرِّهِ: نَبا، وكُلُّ نابٍ ناشِزٌ، ونُشوزُ الشَّيْءِ: ارْتِفاعُهُ قَليلًا قَليلًا، فيُلْحَظُ فيهِ الارْتِفاعُ التَّدْريجِيُّ الَّذي يُشْبِهُ الإِنْباتَ، فلا يُقالُ لِمَنْ رَفَعَ حائِطًا: نَشَزَ، قال أبو زَيْدٍ: نَشَزْتُ بقِرْني أَنْشُزُ به، إذا احْتَمَلْتَهُ فصَرَعْتَهُ، وتَلٌّ ناشِزٌ، وقَلْبٌ ناشِزٌ، إذا ارْتَفَعَ عَنْ مَكانِهِ من الرُّعْبِ، وعِرْقٌ ناشِزٌ: لا يَزالُ مُنْتَبِراً يَضْرِبُ مِنْ دائِه، ونُشوزُ المَرْأَةِ: رَفْعُ نَفْسِها وتَعاليها عَمَّا أَوْجَبَ اللّٰه عَلَيْها مِنْ طاعَةِ الأَزْواجِ، ويُعَبَّرُ عَنِ الإِحْياءِ بالنَّشْزِ والإِنْشازِ؛ لكَوْنِهِ ارْتِفاعًا بَعْدَ اتِّضاعٍ، ونَشْزُ العِظامِ: إِعْلاءُ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ظهور قدرة الله على البعث بعد الموت

يَخْتَزِلُ هَذا المَثَلُ حالَ الإِنْسانِ في الدّنيا، فالمارُّ يُمَثِّلُ عُمومَ النّاسِ، والقَرْيَةُ تُمَثِّلُ الدُّنْيا وأَنَّ مَآلَها الخَرابُ والدَّمارُ بسَبَبِ ذُنوبِ ومَعاصي أَهْلِها، واسْتِبْعادُ المَارِّ حَياةَ القَرْيَةِ مَرَّةً أُخْرى، هُوَ حالُ مُعْظَمِ النَّاسِ مَعَ البَعْثِ، وإماتَةُ المارِّ ثُمَّ إِحْياؤُهُ يُمَثِّلُ إِحْياءَ الإيمانِ

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/80، والفراء، معاني القرآن: 1/172، وابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 216، وابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 95، والزجاج، معاني القرآن: 1/343، والأزهري، تهذيب اللغة: (سنو)، والخطابي، غريب الحديث: 2/242، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 114، والسمين، الدر المصون: 2/563.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/80، والسجستاني، نزهة القلوب، ص: 472، والأزهري، تهذيب اللغة: (نشز)، والهروي، الغريبين: 6/1839، والراغب، المفردات: (نشز)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/351، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 138.

والهِدايَةِ والعِلْمِ، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ومَوْتُهُ مِئَةَ عامٍ يُمَثِّلُ حالَ النَّاسِ في قُبورِهِمْ، وشُعورُهُ بمُدَّةِ اللُّبْثِ بَعْدَ البَعْثِ كشُعورِ النَّاسِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ.

ففي هَذا المَثَلِ إشارَةٌ وَعْظِيَّةٌ بَليغَةٌ، في أَنَّ الدُّنْيا دارُ مَمَرٍّ، وأَنَّ عَلى الإِنْسانِ إِحْسانَ المُرورِ فيها، وحالُ الدّنيا كحال هَذِهِ القَرْيَةِ الخاوِيَةِ عَلى عُروشِها، واخْتِلافُ المُفَسِّرينَ في كَوْنِ هَذا المارِّ ابْتِداءً كانَ كافِرًا مُنْكِرًا للبَعْثِ أو لا؟ يُعْطي إشارَةً أَنْ لا قَطْعَ في المَسْأَلَةِ من نَظْمِ الآيَةِ، ويُشْعِرُ نَظْمُها الجَزيلُ أَنَّ حالَ النّاسِ كهَذا المارِّ غَيْرُ مَقْطوعٍ في حُكْمِهِمْ هِدايَةً وضَلالَةً إِلَّا في النّهاياتِ.

فلمَّا اتَّضَح لهذا المارِّ بعد ردِّ اللّه إليه روحَه - وقد قبضها اللّه مئة عامٍ -، وشَاهَدَ أَنَّ ما معه من طعامٍ وشراب لم يُغيِّره مرورُ كلِّ هذا الوقتِ، مع كونهما من أسرع الأشياء تغيُّرًا، وشَاهَدَ حمارَه وقد مات وبَلِيتْ عِظامُه، وليجعل اللّه هذا الرجلَ للناس حُجَّةً على قدْرته سبحانه، ثم شاهَدَ العِظامَ البالية لحماره؛ كيف يُحْييها اللّه، ثم يُغطِّيها ويكسوها بعد الالتئام باللحم، فلمَّا اتضح له ذلك عِيانًا اعترف بعظمة اللّه وتَيَقَّنَ أَنَّ اللّه قادرٌ على كلِّ شيء.

ولم يعتنِ اللّه في القرآن الكريم بتحديد الأشخاص والأماكن - في هذه القصةِ وغيرها - لأنه يقصد إلى العبرة وبيان الحال وتجلية الحدث.

وفي الآيةِ الكريمة بيان للناس بأنَّ الموت يشبه النوم، وأن البعث يشبه اليقظة بعده، وأنه لا شيء محال على اللّه تعالى فهو القائل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

إيثارُ حَرْفِ ﴿أَوْ﴾ عَلى حَرْفِ (الواوِ):

ذَكَرَتِ الآيَةُ حَرْفَ ﴿أَوْ﴾ التي فَرَّقَتْ بَيْنَ المَثَلَيْنِ، فحَرْفُ ﴿أَوْ﴾ دَلَّ عَلى التَّفْصيلِ[1]، دونَ الواوِ التي تَجْمَعُ بَيْنَهُما؛ "للاحْترازِ عَنْ تَوَهُّمِ اتِّحادِ المُسْتَشْهَدِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ"[2]،

(1) السمين، الدر المصون: 2/555.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

فلَوْ قالَ: وكالَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ؛ لفُهِمَ أَنَّ المَثَلَ الأَوَّلَ والثَّانيَ تَمْثيلان لمَعنًى واحِدٍ، فيَكونُ المَقْصودُ بالمَثَلِ الثّاني عَيْنَ المَقْصودِ بالمَثَلِ الأَوّلِ، وهَذا غَيْرُ مُرادٍ، إذِ المُرادُ التَّمْثيلُ بمَثَلَيْنِ عَلى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، كما سَبَقَ بَيانُ ذَلِكَ في اللَّفِّ والنَّشْرِ التَّمْثيلِيِّ.

الإخْـتِـزازُ عَـنْ تَـوَهُّـمِ اتِّـحـادِ مَقْصودِ المَثَلَيْنِ في مَعْنًى واحِدٍ

بَلاغَةُ الإحْتِباكِ في الآيَةِ:

عَطْفُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ على: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى﴾، فيه احْتِباكٌ خَفِيٌّ، حَيْثُ أَفادَ العَطْفُ إظْهارَ مَعْنَيَيْنِ مُقَدَّرَيْنِ، أَحَدُهُما في الأولى دَلَّتْ عَلَيْهِ الثّانِيَةُ، والثّاني في الثّانِيَةِ دَلَّتْ عَلَيْهِ الأولى، فيَكونُ المَعْنى كالآتي: أَلَمْ تَتَعَجَّبْ مِنْ مِثْلِ الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ، أَوْ أَلَمْ تَتَعَجَّبْ مِنْ مِثْلِ الَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ، فحُذِفَ مِنَ الأولى التَّشْبيهُ الَّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ الثّانِيَةُ، وحُذِفَ مِنَ الثّانِيَةِ التَّعَجُّبُ الَّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ الأولى، فاجْتَمَعَ في الآيَتَيْنِ المَعْنَيانِ بنَوْعِ تَقْديرٍ للمَعْنى، بَعْدَ تَأَمُّلٍ للمَبْنى، "فمِنْ شَأْنِ العَرَبِ العَطْفُ بالكَلامِ عَلى مَعْنى نَظيرٍ لَهُ قَدْ تَقَدَّمَهُ، وإنْ خالَفَ لَفْظُهُ لَفْظَهُ"[1]، وحَسُنَ أَنْ يُحْذَفَ التَّشْبيهُ مِنَ الأولى للبَدْءِ بالتَّعَجُّبِ والتَّمَحُّضِ لَهُ فهُوَ المَطْلوبُ ابْتِداءً، وحَسُنَ أَنْ يُحْذَفَ التَّعَجُّبُ مِنَ الثّانِيَةِ لحُضورِ مَعْناهُ مِنَ الأولى بما يَقْتَضيهِ العَطْفُ، وذُكِرَ حَرْفُ التَّشْبيهِ في الثّانِيَةِ؛ "لأَنَّ المُنْكِرَ للإحْياءِ كَثيرٌ، والجاهِلَ بكَيْفِيَّتِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصى، بخِلافِ مُدَّعي الرُّبوبِيَّةِ"[2]، و"للتَّنْبيهِ عَلى تَعَدُّدِ الشَّواهِدِ وعَدَمِ انْحِصارِها فيما ذُكِرَ"[3]، وليُرَدَّ الأُسْلوبُ عَلى الأُسْلوبِ، فيَتَّحِدا في بَيانِ المَطْلوبِ.

حُـذِفَ التَّشْبيهُ مِنَ الأولى للبَدْءِ بـالـتَّـعَـجُّـبِ، وحُذِفَ التَّعَجُّبُ مِـنَ الـثّـانِـيَـةِ لحُضورِ مَعْناه، ولِـيُرَدَّ الأُسْلوبُ عَـلى الأُسْلوبِ، فيَتَّحِدا في بَيانِ المَقْصودِ

وما قَدْ يُظَنُّ بأَنَّ الأولى لا يَصِحُّ تَقْديرُ مَثَلٍ فيها؛ لأَنَّ التَّعَجُّبَ مِنَ الاسْمِ المَوْصولِ لا مِنَ المَثَلِ، فغَيْرُ دَقيقٍ، وادِّعاءٌ خالٍ مِنَ الدَّليلِ، فإنَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/438، ويُنظر: الفراء، معاني القرآن: 1/170، والزمخشري، الكشاف: 1/306، والآلوسي، روح المعاني: 2/20.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/156.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

وُقوعَ التَّعَجُّبِ مِنْ مَثَلِ الَّذي حاجَّ، أَبْلَغُ مِنَ التَّعَجُّبِ مِنْهُ، وهَذِهِ نَظيرُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فإِنَّ نَفْيَ مُشابَهَةِ أَحَدٍ لِمِثْلِ اللّهِ عَلى افْتِراضِهِ، أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ مُشابَهَةِ أَحَدٍ للّهِ تَعالى[1]، فإِذا وَقَعَ التَّعَجُّبُ مِمَّنْ يُشابِهُ هَذا المُحاجَّ في رَبِّهِ، فكَيْفَ بالمُحاجِّ نَفْسِهِ؟! وهَذا مِنْ بَليغِ الاِسْتِعْمالِ في الحَذْفِ.

بيان نوع التشبيه في الآية:

الكاف ههنا ليس للتشبيه المجرد بل هو للتحديد والتحقيق

قال الراغب: "والوجه أن الكاف ههنا ليس للتشبيه المجرد بل هو للتحديد والتحقيق؛ كما هو في قولك: الاسم كزيد وعمر وعلي، أنه وإن جعل للتشبيه، فعلى سبيل المثل والمشبه غير مذكور"[2].

سرُّ إيثار الفعل ﴿مَرَّ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾:

التَّعْبيرُ بـ (مرّ) إِشارَةٌ وَعْظِيَّةٌ بَليغَةٌ، في أَنَّ الدُّنْيا دارُ مَمَرٍّ

يَدُلُّ الفِعْلُ ﴿مَرَّ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ عَلى المُضِيِّ السَّريعِ دونَ تَوَقُّفٍ، وأَنَّ الإِنْسانَ في الدُّنْيا كهذا المارِّ الذي لَمْ يُرِدِ المُكْثَ في القَرْيَةِ، وإِنَّما أَرادَها طَريقًا يَجْتازُهُ، فَفاجَأَهُ المَوْتُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، وكَذَلِكَ الدُّنْيا، هِيَ دارُ مَمَرٍّ لا دارُ مُسْتَقَرٍّ، فعلى الإِنْسانِ أَنْ يَعْتَبِرَ بهَذا المَثَلِ القُرْآنيِّ، فيُحْسِنَ بمُرورِهِ عَلى الدُّنْيا الخاوِيَةِ عَلى عُروشِها. قال الحرالِّي: "﴿مَرَّ﴾ من المرور وهو جعل الشيء على مسلك إلى غيره مع التفات إليه في سبيله"[3].

إِبْهامُ (قرية) في سِياقِ الآيَةِ، يُعينُ عَلى الاِسْتِنْباطِ، ويُطابِقُ مُقْتَضى البَلاغَةِ وظاهِرَ النَّظْمِ

دَلالَةُ الإِبْهامِ في تنكير لفظ القرية:

تَنْكيرُ ﴿قَرْيَةٍ﴾ دَليلُ الإِبْهامِ، وإِبْهامُها أَوْسَعُ في فَضاءِ التَّدَبُّرِ مِنْ تَعْيينِها، وما جاء في بَعْضِ التَّفاسيرِ[4] مِن تَعْيينِها، لا دَليلَ يُسْنِدُهُ، فَضْلًا عَنْ تَقْييدِهِ لحَرَكَةِ التَّفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ لأَلْفاظِ الآيَةِ وتَراكيبِها وحُروفِها، فحَمْلُ القَرْيَةِ عَلى الإِبْهامِ هُوَ الظّاهِرُ وما تَقْتَضيهِ

(1) دراز، النبأ العظيم، ص: 165 فما بعدها.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/542.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/55.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/21.

البَلاغَةُ، وهُوَ ما تَجْري عَلَيْهِ اسْتِنْباطاتُ المَعاني سَلِسَةً رَقْراقَةً، فإنَّ التَّعْيينَ يَذْهَبُ بالفِكْرِ رَأْسًا، ويَضْرِبُ بالفَأْسِ رَأْسًا، فعَدَمُهُ عِنْدَ إعْدامِهِ خَيْرٌ مِنْ وُجودِهِ بَعْدَ إيجادِهِ.

وجه إجراء قَوْلِهِ تعالى: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مَجْرى التَّرْكيبِ:

دَلَّ التَّرْكيبُ القُرْآنِيُّ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ على الهلاكِ التّامِّ بسَبَبِ الذُّنوبِ

لهَذا التَّعْبيرِ دِقَّةٌ بَيانِيَّةٌ لا تُفْهَمُ إلَّا عَلى ضَوْءِ اجْتِماعِ هَذِهِ الدُّرَرِ الثَّلاثِ، فهُوَ يُفيدُ أَنَّ القَرْيَةَ سَقَطَ سَقْفُ أَبْنِيَتِها، "وذَلِكَ أَشَدُّ الخَرابِ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ ما يَسْقُطُ مِنَ البِناءِ السَّقْفُ، ثُمَّ تَسْقُطُ الجُدْرانُ عَلى تِلْكَ السُّقُفِ"(1)، وأَنَّ السُّقوطَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الجُدْرانِ المُحيطَةِ، أَوْ مِنَ القَواعِدِ السُّفْلِيَّةِ، بَلْ مِنَ السُّقُوفِ العالِيَةِ، ويُشيرُ التَّرْكيبُ إلى أَنَّ دَمارًا وَقَعَ بسبب ذَنْبٍ حَصَلَ، هَذا هُوَ المُلاحَظُ في اسْتِعْمالِ القُرْآنِ لهَذِهِ اللَّفْظَةِ، قال تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: 42]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: 45]، وقال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: 52]، ويُرَشِّحُ ذَلِكَ في هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُ المارِّ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وهُوَ دَليلٌ عَلى شِدَّةِ الفَزَعِ مِمَّا رَأى مِنْ دَمارِها، وفُقْدانِ الأَمَلِ مِنْ مُعاوَدَةِ الحَياةِ فيها عَلى ما يَعْرِفُهُ النَّاسُ، وفي ذَلِكَ إشارَةٌ إلى أَنَّ الدُّنْيا سَتَزولُ وتُصْبِحُ في نِهايَةِ الزَّمانِ خاوِيَةً عَلى عُروشِها بسَبَبِ ذُنوبِ أَصْحابِها!

دقّةُ تَصْويرٍ تراتبيّة مَشْهَدِ الخَرابِ:

دَلَّ حَرْفُ (على) عَلى سُقوطِ العُروشِ أَوَّلًا، ثُمَّ تَهَدُّمِ الجُدْرانِ ثانِيًا، وهَذا كَشْفٌ تاريخِيٌّ بَديعٌ

صَوَّرَ التَّرْكيبُ القُرْآنِيُّ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مَشْهَدَ الخَرابِ الَّذي لَحِقَ القَرْيَةَ، وتَظْهَرُ دِقَّةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بمَعْنى الوُقوعِ والتَّهَدُّمِ، فالقَرْيَةُ مُتَهَدِّمَةٌ فَوْقَ العُروشِ، فالعُروشُ الَّتي هِيَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36، وينظر: الآلوسي، روح المعاني: 2/21.

سُقُفُ البُيوتِ تَحْتَ جُدْرانِ القَرْيَةِ، وهُوَ ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ السُّقُفَ هِيَ أَوَّلُ ما وَقَعَ، ثُمَّ تَهَدَّمَتْ فَوْقَها الجُدْرانُ، كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: 82]، فهُوَ تَصْويرُ تَهَدُّمِ الأَبْنِيَةِ فَوْقَ العُروشِ، وهُوَ ما يُرَشِّحُ أَنَّ القَرْيَةَ كانَتْ مُعَذَّبَةً، فحَرْفُ الاسْتِعْلاءِ قادَ إلى كَشْفٍ تاريخِيٍّ بَديعٍ، هَذا ما يَدُلُّ عَلَيْهِ دَقيقُ الكَلامِ، وفَصيحُ البَيانِ، أَوْ نَجْعَلُ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بمَعْنى خالِيَةً عَلى الظَّاهِرِ، فيَكونُ المَعْنى: القَرْيَةُ خالِيَةٌ مِنْ سُكَّانِها، عَلى وُجودِ عُروشِ الأَبْنِيَةِ مُرْتَفِعَةً، أَيْ أَنَّ الأَبْنِيَةَ مَوْجودَةٌ لكِنَّها خالِيَةٌ مِنْ أَهْلِها، وعَلى هَذا المَعْنى فلا دَمارَ ولا خَرابَ، وهُوَ بَعيدٌ مِنَ النَّظْمِ، واسْتِعْمالِ القُرْآنِ، وما يَقْتَضيهِ سِياقُ الكَلامِ.

بلاغة الكناية في جملة ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾:

"الجملة كناية عن صفة الدّمار والخراب في تلك القرية المرور بها. ومن أسرار هذه الكناية أنها نقلت حدث التّدمير والخراب من فكرة ذهنيّة مجرّدة إلى صورة حسيّة ماثلة أمام الخيال: جدران محطّمة وأسقف هامدة، وعظام مفتتة"[1].

سرّ الكناية نقل حدث التّدمير والخراب من فكرة ذهنيّة مجرّدة إلى صورة حسيّة ماثلة أمام الخيال

وجه إيثار الأداةِ ﴿أَنَّىٰ﴾ دونَ كَيْفَ أَوْ مَتى، وحيث:

في ﴿أَنَّىٰ﴾ وَجْهان، أَحَدُهُما: أَنْ تكونَ بمَعْنى (مَتى)، و (حيث) وعَلَيْهِ فتَكونُ ظَرْفًا، والثّاني: أَنْ تَكونَ بمَعْنى (كَيْفَ)، وعَلَيْهِ فيَكونُ مَوْضِعُها حالًا مِنْ ﴿هَٰذِهِ﴾[2]، وحَمْلُها عَلى مَعْنى كَيْفَ أَظْهَرُ أَصالَةً؛ لدَلالَةِ اسْتِبْعادِ القائِلِ الإِحْياءَ، والإِحْياءُ كَيْفِيَّةٌ لا زَمَنٌ، وهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ مَعْنى الظَّرْفِيَّةِ تَبَعًا؛ لأَنَّ الكَيْفِيَّةَ لا تَكونُ إلَّا في زَمَنٍ، فهُوَ يَسْتَبْعِدُ وَقْتَ الإِحْياءِ ومكانه، بَعْدَ اسْتِبْعادِ كَيْفِيَّتِه، وهَذا سِرُّ اخْتِيارِ ﴿أَنَّىٰ﴾ دونَ غَيْرِها، وهُوَ مِنْ فَصيحِ الاسْتِعمالِ. قال الحرالِّي: "وفي لفظة

استبعادُ الإحياءِ للكَيْفِيَّةِ والمكان، والزَّمَنِ، واستعمالُ (أَنّى) أذنى لاستعمالِ الفَصيحِ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(2) السمين، الدر المصون: 2/560.

(أنى) - لشمول معناها لمعنى كيف وحيث ومتى- استبعاده الإحياء في الكيف والمكان والزمان، ومنشأ هذا الاستبعاد إنما يطوق النفس من طلبها لمعرفة تكييف ما لا يصل إليه علمها"[1].

معنى الاستفهام في ﴿أَنَّىٰ﴾:

دلالة الاستفهام الاستبعاد والاستعظام

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ[2]. واستعظامٍ لقدرة الله على الإحياء[3].

بيان كون الحَقيقَةِ أَبْلَغَ مِنَ المَجازِ بالحَذْفِ:

مَقْصودُ الآيَةِ عُمومُ الحَياةِ لا خُصوصُ حَياةِ النَّاسِ، وهَذا أَقْوى في الاِسْتِبْعادِ، وأَدَقُّ تَصْويرًا

حَمْلُ الإحْياءِ والإماتَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾ عَلى الحَقيقَةِ أَبْلَغُ مِنَ المَجازِ بالحَذْفِ؛ فإنَّ القُرى تَموتُ بمَوْتِ أَهْلِها، ودَوابِّها، وأَشْجارِها، وحَرَكَتِها المَعيشِيَّةِ، وتَحْيا بحَياتِهِمْ، وهَذا أَفْصَحُ مِنْ أَنْ يُقالَ: أَنَّى يُحْيي أَهْلَ هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ؛ لما في ذَلِكَ مِنْ تَخْصيصِ الإحْياءِ والإماتَةِ بالنَّاسِ، ومَقْصودُ الآيَةِ عُمومُ جَميعِ الكائِناتِ التي تَكونُ في القُرى، وهَذا أَقْوى في الاِسْتِبْعادِ، وأَدَقُّ في تَصْويرِ مَشْهَدِ الخَرابِ والبُؤْسِ، ودَليلٌ عَلى بُعْدِ عَهْدِ خَرابِ القَرْيَةِ. ومِنْ هُنا يَظْهَرُ بُعْدُ القَوْلِ بأَنَّ الإحْياءَ مَحْمولٌ عَلى كَوْنِهِ مَجازًا مُرْسَلًا مِنْ قَبيلِ إطْلاقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الحالِ فيه، أو من كان حالًّا فيه، فيكون مجازًا عقليًّا إذ أوقع الإشارة الحسّية على القرية مريدًا أهلها ولوا أُحْيُوا لَعَمَرُوها كما عَمَرُوها من قبل[4]. فضلًا عن أَنَّهُ "عَبَّرَ عَنْها بالإحْياءِ الَّذي هُوَ عَلَمٌ في البُعْدِ عَنْ الوُقوعِ عادَةً، تَهْويلًا للخِطابِ، وتَأْكيدًا للاِسْتِبْعادِ، كما أَنَّهُ لأَجْلِهِ عَبَّرَ عَنْ خَرابِها بالمَوْتِ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/55-56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/253.

تَقْديمُ المفْعولِ عَلى الفَاعِلِ، والتّعْبيرُ عَنْهُ باسْمِ الإشارَةِ:

الإغْتِنـاءُ بالمَفْعولِ مِنْ جِهَةِ السَّائِلِ المُسْتَبْعِدِ، وتَصْويرُ الحالَةِ النَّفْسِيَّةِ للقائِلِ

مُقْتَضى الظَّاهِرِ تَقْديمُ الفاعِلِ عَلى المَفْعولِ، لَكِنْ لَمَّا كانَ الاسْتِبْعادُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ناشِئًا مِنْ جِهَةِ القائِلِ، لا مِنْ جِهَتِهِ سُبْحانَهُ الفاعِلِ، حَسُنَ تَقْديمُ المَفْعولِ بِهِ المُعَبَّرِ عَنْهُ باسْمِ الإشارَةِ، عَلى الفاعِلِ اعْتِناءً بِهِ[1]، وتَصْويرًا للحالَةِ النَّفْسِيَّةِ للقائِلِ حينَ قَوْلِهِ، ودَليلُ ذَلِكَ اسْتِعْمالُ اسْمِ الإشارَةِ دونَ الضَّميرِ، فلَمْ يَقُلْ: (أَنَّى يُحييها؟!) لتَصْويرِ حالِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ وهُوَ يُشيرِ بيَدِهِ، ومَدى تَفاعُلِهِ في اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ حينَ النَّظَرِ إلى القَرْيَةِ الهالِكَةِ، وهَذا يُرَجِّحُ أَنَّهُ قالَ قَوْلَتَهُ التي ضُرِبَتْ مَثَلًا؛ بلِسانِ المَقالِ لا بلِسانِ الحالِ، "فالتَّعْبيرُ بالإشارَةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ فيهِ إشارَةٌ إلى تِلْكَ الحالِ الحِسِّيَّةِ الثّابِتَةِ التي اسْتَوْلَتْ عَلى حِسِّهِ، وهِيَ تِلْكَ القَرْيَةِ الخَرِبَةِ، وقَدْ قَدَّمَها عَلى لَفْظِ الجَلالَةِ فقالَ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأَنَّ السَّبَبَ في التَّساؤُلِ تِلْكَ الحالُ الحِسِّيَّةُ التي هُوَ عَلَيْها"[2]، وأما حَمْلُ اسْمِ الإشارَةِ عَلى أَنْ يَكونَ إشارَةً للعِظامِ البالِيَةِ[3] فبَعيدٌ.

في التقديم وصفٌ لحالة الذهول، والشك في القدرة على الإحياء

في التقديم إيحاء بأنّ حالة الدمار والخراب في القرية قد بلغا حدًّا غير معهود، وأنَّ تَعَجُّبَ الرَّجُلِ وذهولَهُ من شدّة التدمير ولَّدَ عنده الشَّكَّ في أيّ قوة قادرة على إعادة هذه القرية إلى ما كانت عليه[4].

سرّ التكرار اللفظي للَّبْثِ:

وجه تكرار لفظ (لبث) عناية بالفعل، وبيانٌ لفخامة حدثه

إعادة كلمة (اللبث) ثلاث مرّاتٍ للعناية بهذا (اللبث)؛ لأنّه أفخم حدث في القصّة، وأهمّه، وأشدّه إثارة للتعجب؛ إذ كان يكفي أن يقال: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ في الردّ على السؤال، وأن يقال في الردّ على الردّ: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/22.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/961.
(3) السمين، الدر المصون: 2/560.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

سرّ تحديد مدّة الإماتة، واللبث بـ (مئة) عامٍ:

في تعليل تخصيص لفظة (المئة) في قوله تعالى: ﴿مِاْئَةَ﴾ قال البقاعي: "ولما كان المراد أن مدة موته كانت طويلة ليكون قد بلي فيها فتكون إعادته أمكن في القدرة على ما تستبعده العرب"[1]. ونقل عن الحرالِّي قوله: "وخصّ المائة لكمالها في العد المثلث من الآحاد والعشرات وعشرها وتر الشفع لأن ما تم في الثالث كان ما زاد عليه تكراراً يجزىء عنه الثلاث"[2].

خـصّ المـئـة؛ لـدلالـتـهـا على طـول المـدّة، فتكون الإعـادة أمكن في القدرة؛ ولـكـمـالـهـا في العدّ

نكتة التعبير بالعام دون السّنَة:

وللدلالة على "أنّ ذلك الزمان كان حسناً طيباً لقبوله الإحياء والعمارة عبّر عنه بما يدل على السعة فقال: ﴿عَامٍ﴾ حتى بلي حماره وحفظ طعامه وشرابه من التغير؛ ليتحقق كمال القدرة بحفظ ما شأنه التغير، وتغير ما شأنه البقاء، وإعادة ما فَنِي"[3]. ولذلك أُوثِر لفظ العام؛ لإنَّ السَّنَةَ تُسْتَعْمَلُ للزَّمَنِ الَّذي يَكونُ فيهِ شِدَّةٌ ومَحْقٌ.

آثـرَ لفظ العام لـدلالـتـه عـلى حـسـن الـزمـان وطـيـبـه لقبوله الإحياء والعمارة

إيثارُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ البَعْثِ عَلى الإحْياءِ:

اسْتَعْمَلَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ فِعْلَ البَعْثِ ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ: بَعَثَ النَّاقَةَ إذا أقامَها مِنْ مَكانِها، وإيثارُهُ عَلى (أَحْياهُ)؛ للدَّلالَةِ عَلى سُرْعَتِهِ وسُهولَةِ تَأَتِّيهِ عَلى الباري عَزَّ اسْمُهُ، وللإيذانِ بِأَنَّهُ قام كهَيْئَتِهِ يَوْمَ مَوْتِهِ، عاقِلًا فاهِمًا مُسْتَعِدًا للنَّظَرِ والاسْتِدْلالِ[4]، وللإشْعارِ والتَّذْكيرِ بمَضْمونِ مُصْطَلَحِ البَعْثِ المُسْتَعْمَلِ عَلَمًا عَلى يَوْمِ القِيامَةِ، تَشْبيهًا للبَعْثِ هُنا ببَعْثِ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ، واسْتِعْمالُ هَذا المُصْطَلَحِ بَدَلَ الإحْياءِ الَّذي يُقابِلُ الإماتَةَ - وهُوَ الَّذي يَقْتَضيهِ

إفادَةُ ثَلاثَةِ أَنْواعٍ مِـنَ الـبَـلاغَـةِ، وهِـيَ الإيـجـازُ والإدْمـاجُ والـتَّـشْـبـيـهُ، ولـمـا يَـخـويـهِ هَـذا اللَّفْظُ مِنَ التَّذْكيرِ بالقِيامَةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/253.

الظَّاهِرُ اللُّغَوِيُّ -، مَنْ قَبيلِ الإدْماجِ[1] في اسْتِعْمالِ المُصْطَلَحِ، حَيْثُ أَدْمَجَ التَّنْبيهَ عَلى البَعْثِ الأُخْرَوِيِّ المُطْلَقِ، مِنْ خِلالِ إيثارِ اسْتِعْمالِ مُصْطَلَحِ البَعْثِ الدُّنْيَوِيِّ المُقَيَّدِ، ودَلالَةُ لَفْظِ البَعْثِ شَمِلَتِ الإحْياءَ تَضَمُّنًا، فهُوَ إيجازٌ بَديعٌ، أَداتُهُ إيثارُ لَفْظٍ عَلى آخَرَ، ولَوْ قالَ: ثُمَّ أَحْياهُ، التِزامًا بمُقْتَضى الظَّاهِرِ اللُّغَوِيِّ؛ لفاتَتْ هَذِهِ الفَرائِدُ، وضُيِّعَتْ هَذِهِ النِّكاتُ.

الاِسْتِئْنافُ البَيانِيُّ في المُحاوَراتِ القُرْآنِيَّةِ:

بِناءُ التَّفْكيرِ المُتَدَرِّجِ، لِلوُصولِ إلى المَعْرِفَةِ اليَقينِيَّةِ، والإغْتِقادِ الصَّحيحِ

سُنَّةُ القُرْآنِ في الحِوارِ الهادِفِ، قائِمَةٌ عَلى الجُمَلِ المَفْصولَةِ بَيْنَ المُتَحاوِرينَ؛ لتَحْريكِ أَذْهانِ المُخاطَبينَ في تَوَقُّعِ الأَقْوالِ، وهَذا تَشْويقٌ قُرْآنِيٌّ، وتَشْريكٌ حِواريٌّ، هَدَفُهُ بِناءُ قيمَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ، في بِناءِ العَقْلِ وتَوْجيهِهِ نَحْوَ مُقْتَضى الحَقِّ والاِعْتِقادِ الصَّحيحِ، ففي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، ثَلاثَةُ أَقْوالٍ مَفْصولَةٍ، أُريدَ مِنَ الأَوَّلِ التَّوْطِئَةُ للمَعْرِفَةِ، ومِنَ الثَّاني بَيانُ جَهْلِ الإنْسانِ وقِلَّةِ حيلَتِهِ، ومِنَ الثَّالِثِ المَعْرِفَةُ اليَقينِيَّةُ؛ للتَّسْليمِ والإيقانِ بأَنَّ الأَمْرَ أَيْسَرُ مِمَّا يَسْتَبْعِدُهُ الإنْسانُ بمَحْضِ فِكْرِهِ ووَهْمِهِ، وهَذا فَحْوى المَثَلِ، ومَكْمَنُ فائِدَتِهِ، ولُبُّ ثَمْرَتِهِ.

مَعْنى ﴿أَوْ﴾ في السِّياقِ:

التَّصْويرُ البَلاغِيُّ لِمَعْنى المَثَلِ القُرْآنِيِّ، سَبيلٌ في التَّرْجيحِ بَيْنَ مَعاني الحُروفِ

ذَكَرَ المُفَسِّرونَ أَنَّ ﴿أَوْ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ للشَّكِّ، أَوْ للإضْرابِ[2]، والصَّحيحُ أَنَّها للشَّكِّ الصَّادِرِ عَنِ الحَيْرَةِ، لأَنَّ الإضْرابَ إمّا أَنْ يَكونَ انتِقاليًّا، أَوْ إبْطالِيًّا، والمَعْنَيانِ غَيْرُ واردَيْنِ، فإنَّ تَصْويرَ المَشْهَدِ يَدُلُّ عَلى أَنَّ المَسْؤولَ مُتَحَيِّرٌ في جَوابِهِ، غَيْرُ مُتَيَقِّنٍ مِنْ إيرادِهِ، ولَوْ قُلْنا بالإضْرابِ لَدَلَّ عَلى تَيَقُّنِ المَسْؤولِ، وهَذا مِمَّا لا سَبيلَ إلى إثْباتِهِ.

(1) الإدماج: "أن يُضمَّنَ كلامٌ سيق لمعنًى معنًى آخر". التفتازاني، المطول، ص: 684.
(2) السمين، الدر المصون: 2/561.

فائِدَةُ حَرْفِ الإضْرابِ:

تَـعْـيـينُ خَـطَـأِ المَـسْـؤولِ في تَقْديرِهِ، وضُعْفِ حيلَتِهِ

حَرْفُ الإضْرابِ في قوله ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ إبْطالِيٌّ، وقَدْ عَطَفَ اللَّاحِقَةَ عَلى جُمْلَةٍ مَحْذوفَةٍ، تَقْديرُها: ما لَبِثْتَ الَّذي قلتَ، بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عامٍ[1]، ولَمْ يَبْدَأْ بالجَوابِ مُباشَرَةً دونَ إبْطالِ جَوابِ المَسْؤولِ، كأنْ يَقولَ: لَبِثْتَ مِئَةَ عامٍ؛ لتَعْيينِ خَطَأِ المَسْؤولِ في تَقديرِهِ الذِّهْنِيِّ، وفَهْمِهِ الفِكْرِيِّ؛ وهَذا أَقْوى مِنَ الجَوابِ المُجَرَّدِ عَنْ بَيانِ الخَطَأِ؛ لأنّ المَقامَ مَقامُ حِجاجٍ عَقَدِيٍّ، وبَيانُ الخَطَأِ أَوْلَوِيَّةٌ حِجاجِيَّةٌ لا يَنْبَغي التَّساهُلُ فيها.

بَلاغَةُ التَّقابُلِ، وأَثَرُهُ في تَقْديرِ المَحْذُوفِ:

وجـهُ التّقابلِ وتقديرِ المحذوفِ دفـعُ مشْكـلِ فـنـاءِ الطَّـعـامِ والـشَّـرابِ لا تغيُّرِهما

تَفَرَّعَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ على قولِه: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، وهُوَ تَفَرُّعٌ بحاجَةٍ إلى مَزيدِ تَأَمُّلٍ وتَدَبُّرٍ، فلا يَظْهَرُ مَعْنى عَدَمِ تَغَيُّرِ الطَّعامِ والشَّرابِ بَعْدَ مُرورِ مِئَةِ عامٍ، إذْ مُقْتَضى الأَمْرِ الفَناءُ، وعَدَمُ تَغَيُّرِ الطَّعامِ والشَّرابِ مُلْتَئِمٌ مَعَ جَوابِ المَسْؤولِ في كَوْنِهِ لَبِثَ يَومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وهَذا مُشْكِلٌ لا يَدْفَعُهُ إلَّا تَدَبُّرُ النَّظْمِ المُعْجِزِ، ولدَفْعِهِ طَريقَتانِ: إمَّا بتَقْديرِ المَحْذوفِ بتَصْويرِ المَشْهَدِ بتَمامِهِ بإلْحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ، وإمَّا بدَلالَةِ التَّقابُلِ بَيْنَ الجُمَلِ المُتَغايِرَةِ، وكِلْتا الطَّريقَتَيْنِ مُشْتَمِلَةٌ عَلى جَمالٍ باهِرٍ، وسِرٍّ زاهِرٍ.

تَصْويرُ المَشْهَدِ بتَمامِهِ بإلْحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ

إلْحاقُ الجُمْلَةِ بنَظيرَتِها أَداةٌ بَيانِيَّةٌ في فَهْمِ المَعاني وتَقْديرِ المَحْذوفِ، ففي الآيَةِ قَدْ أُمِرَ المَبْعوثُ أَنْ يَنْظُرَ إلى طَعامِهِ وشَرابِهِ، وإلى حِمارِهِ، فقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ دَليلٌ عَلى حَياةِ الحِمارِ المَحْذوفِ ذِكْرُها، فذَكَرَ حالَ الطَّعامِ والشَّرابِ، وحَذَفَ حالَ الحِمارِ، ثُمَّ أَفْنى الطَّعامَ والشَّرابَ، وأَماتَ الحِمارَ، والرَّجُلُ يَنْظُرُ إلَيْها، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ دَليلٌ عَلى كَيْفِيَّةِ

(1) السمين، الدر المصون: 2/561.

عَوْدَةِ الطَّعامِ والشَّرابِ إلى عَهْدِها السَّابِقِ المَحْذوفِ ذِكْرُهُ، فذَكَرَ كَيْفِيَّةَ إحْياءِ الحِمارِ، وحَذَفَ كَيْفِيَّةَ إعادَةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، فيَكونُ مَعْنى الكَلامِ: انْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ كَيْفَ نُفْنيها، وإلى الحِمارِ كَيْفَ نُميتُهُ، ثُمَّ نُعيدُها جَميعًا إلى سابِقِ عَهْدِها، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾، أَيْ: شاهَدَ فَناءَ الطَّعامِ والشَّرابِ ومَوْتَ الحِمارِ، ثُمَّ عَوْدَتَها إلى سابِقِ عَهْدِها، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ ماتَ وبُعِثَ، وهَذِهِ نَظيرُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260].

تَقْديرُ المَحْذوفِ بالتَّقابُلِ بَيْنَ الجُمَلِ المُتَغايِرَةِ

مِنْ أَدَواتِ تَقْديرِ المَحْذوفِ التَّقابُلُ بَيْنَ الجُمَلِ بتَقْديرِ مَعانٍ مُتَغايِرَةٍ لقَرائِنَ لَفْظِيَّةٍ، فمِنْ ذَلِكَ ما جاء في هَذا السِّياقِ، فقَدْ أَمَرَ اللهُ المَبْعوثَ أَنْ يَنْظُرَ إلى طَعامِهِ وشَرابِهِ، وإلى حِمارِهِ، ونُلاحِظُ أَنَّ الآيَةَ ذَكَرَتْ حِفْظَ الطَّعامِ والشَّرابِ، ولَمْ تُبَيِّنْ حالَ الحِمارِ، وفي المُقابِلِ ذَكَرَتْ كَيْفِيَّةَ إحْياءِ الحِمارِ، ولَمْ تَذْكُرْ حالَ الطَّعامِ والشَّرابِ، فدَلَّتِ المُقابَلَةُ على التَّغايُرِ بَيْنَ حالِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وحالِ الحِمارِ، فالطَّعامُ والشَّرابُ حُفِظا بدَليلِ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وفي المُقابِلِ لَمْ تَذْكُرِ الآيَةُ شَيْئًا عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وذَكَرَتْ إحْياءَ الحِمارِ، ففَهِمْنا مِنْ هَذا التَّقابُلِ أَنَّ الحِمارَ قَدْ بَلِيَ، وأَحْياهُ اللهُ تَعالى، وفي كِلْتَيْهِما إثْباتٌ لقُدْرَةِ اللهِ تَعالى[1]. وبِهَذا يَظْهَرُ أَنَّ ذِكْرَ الطَّعامِ والشَّرابِ مَعَ الحِمارِ البالي، مَقْصودُهُ بَيانُ أَنَّ المُحْيي والمُميتَ هُوَ اللهُ تَعالى، فالَّذي حَفِظَ هَذا أَماتَ هَذا، فظَهَرَ مِنْ هَذا التَّقابُلِ حُسْنُ تَقْديرٍ بَديعٍ، يَتَّضِحُ بِهِ المَعْنى ويَنْدَفِعُ مَعَهُ الإشْكالُ.

وَجازَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾:

التَّرْكيبُ القُرْآنيُّ مُلائِمٌ للألْفاظِ والمَعاني عَلى حَدٍّ سَواءٍ، لا تَجِدُ فيهِ خَلَلًا، ولا بَلَلًا، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، فقَدْ جاءَتْ فيهِ مَجْموعَةٌ مِنَ الدَّقائِقِ البَيانِيَّةِ، لا يُؤَدِّيها تَعْبيرٌ آخَرُ، وهِيَ كالآتي:

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/962.

بَلاغَةُ النَّفْي بـ ﴿لَمْ﴾:

أَفادَ النَّفْيُ النَّصَّ عَـلى مَـعْـنَـيَـيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ

إِنَّ (لمْ) تَنْفي وُقوعَ الحَدَثِ عَمّا مَضى نَفْيًا قاطِعًا، مَعَ تَصْويرِ وُقوعِ النَّقيضِ، فأَفادَ النَّفْيُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ما لَمْ يُفِدْهُ الإِثْباتُ، فلَوْ قالَ: فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ صالِحًا، أَوْ صَحيحًا، لَما أَدَّى المَعنى البَيانيَّ الَّذي أَدَّاه النَّفْيُ، وهُوَ النَّصُّ عَلى المَعْنَيَيْنِ المُتَقابِلَيْنِ، وهُما الصَّلاحُ ونَفْيُ الفَسادِ، وآثَرَ اسْتِعْمالَ النَّفْيِ للإِشْعارِ بأَنّ الأَصْلَ في الطَّعامِ التَّغَيُّرُ والفَسادُ.

قصديّة النفي بـ ﴿لَمْ﴾ دون (ما):

أفادت (لم) نفي صـفـة سـرعـة التغيّر المعهودة في الـشـراب والطعام

وقُصد إلى النفي بـ ﴿لَمْ﴾ في الآية؛ "لأن تغير الشّراب والطعام يحصل تدريجيًّا ويستمر وليس دفعة واحدة فجاء بـ (لم) للدلالة على أنه لم يحصل شيء من ذلك، ولو جاء بـ (ما) وقال: (ما تسنّه) لأفاد نَفْيَ التّسَنُّه وهو التغير بصورته النهائية التامة"[1].

سرّ التعبير بصيغَة المُضارِعِ:

الإيـذانُ بـأَنَّ ما حَصَلَ أَمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ

التَّعْبيرُ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ، أَشارَ إلى مَعْنًى اعْتِيادِيٍّ، وهُوَ قابِلِيَّةُ الطَّعامِ والشَّرابِ للتَّغَيُّرِ والفَسادِ بسَبَبِ مُرورِ السِّنينَ، وهُوَ أَمْرٌ سُنَنِيٌّ، فالتَّعْبيرُ بالمُضارِعِ نَبَّهَ عَلى اسْتِحْضارِ هَذا المَعْنى؛ لبَيانِ أَنَّ ما حَدَثَ هُوَ أَمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ.

نكتة إِفْرادُ الضَّميرِ:

تَنَوُّعُ تَوْجيهاتِ إِفْـرادِ الضَّـميرِ الـعـائِـدِ عَـلى التَّثْنِيَةِ، دَليلٌ عَلى غَناءِ النَّظْمِ وزَهاءِ التَّعْبيرِ

إِفْرادُ الضَّميرِ في ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ مَعَ عَوْدَتِهِ عَلى الطّعامِ والشَّرابِ، لَهُ عِدَّةُ تَوْجيهاتٍ مِنَ البَيانِ بما يَتَلاءَمُ مَعَ جَوْدَةِ التَّفْسيرِ؛ فمِنْ تِلْكَ التَّوْجيهاتِ:

أولاً: تَنْزيلُهُما مَنْزِلَةَ الطَّعامِ الواحِدِ، فلا يُكْتَفى بأَحَدِهِما دونَ الآخَرِ، كأَنَّهُ قالَ: انْظُرْ إلى غِذائِكَ.

(1) د. فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/196.

ثانيًا: الاكْتِفاءُ بالمَذْكورِ عَنِ المَحْذوفِ، ويَعودُ الضَّميرُ إلى الشَّرابِ؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكورٍ، مَعَ تَقْديرِ جُمْلَةٍ أُخْرى مَحْذوفَةٍ دَلَّتِ المَذْكورَةُ عَلَيْها.

ثالثًا: سَكَتَ عَنْ تَغَيُّرِ الطَّعامِ، تَنْبيهًا بالأَدْنى عَلى الأَعْلى، وذَلِكَ أَنَّهُ إذا لَمْ يَتَغَيَّرِ الشَّرابُ مَعَ نَزْعَةِ النَّفْسِ إلَيْهِ؛ فَعَدَمُ تَغَيُّرِ الطَّعامِ أَوْلَى[1].

فَجَمَعَ هَذا التَّعْبيرُ مِنْ هَذِهِ المَعاني البَلاغِيَّةِ العالِيَةِ، بدَقيقِ النَّظْمِ، ورَقيقِ الاخْتِيارِ، ما يَعْجُزُ عَنْهُ آحادُ البُلَغاءِ، وأَفْرادُ الفُصَحاءِ، وهَذا مِنْ بَديعِ بَلاغَةِ القُرْآنِ في الكَشْفِ عَنِ المَضامينِ التَّاريخِيَّةِ بعِبارَةٍ وَجيزَةٍ للسَّامِعِ، وأَلْفاظٍ وَنيسَةٍ للمُتَأَمِّلِ.

العَطْفُ عَلى المَحْذوفِ:

عَطْفُ العِلَّةِ الخَفِيَّةِ عَلى العِلَّةِ الظَّاهِرَةِ، تَنْبيهًا عَلى ضَرورَةِ اسْتِظْهارِها مِنْ قِبَلِ القارِئِ

الواوُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، عَطَفَت الجُمْلَةَ عَلى جُمْلَةٍ مَحْذوفَةٍ مُقَدَّرَةٍ مِنَ السِّياقِ، تَقْديرُها: "لِنُزيلَ تَعَجُّبَكَ ونُرِيَكَ آياتِنا في نَفْسِكَ وطَعامِكَ وشَرابِكَ وحِمارِكَ، ولِنَجْعَلَكَ آيَةً للنَّاسِ، فالعَطْفُ دَلَّنا عَلى المَحْذوفِ المَطْوِيِّ دَلالَةً ظاهِرَةً، وهَذا مِنْ لَطائِفِ إيجازِ القُرْآنِ"[2]. وهُوَ مِنْ عَطْفِ العِلَّةِ الخَفِيَّةِ المَذْكورَةِ عَلى العِلَّةِ الظَّاهِرَةِ المُقَدَّرَةِ، فإِنَّ إزالَةَ التَّعَجُّبِ هُي العِلَّةُ الظَّاهِرَةُ مِنَ السِّياقِ، وتَقْديرُها يَسيرٌ عَلى المُخاطَبِ المُتَدَبِّرِ، فذَكَرَ المَعْنى الخَفِيَّ وعَطَفَهُ عَلى المَعْنى الظّاهِرِ المُقَدَّرِ تَنْبيهًا عَلى ضَرورَةِ اسْتِظْهارِهِ مِنْ قِبَلِ القارِئِ، وأَنَّهُ مَدارُ المَثَلِ المَضْروبِ، وهَذا أُسْلوبٌ قُرْآنِيٌّ فَريدٌ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75]، تَقْديرُ المَحْذوفِ: نُري إبْراهيمَ مَلَكوتَ السَّماواتِ والأَرْضِ ليَتَثَبَّتَ في حُجَجِهِ، ويَتَقَوَّى في بَراهينِهِ، وليَكونَ مِنَ الموقِنينَ.

نَوْعُ التَّعْريفِ في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

المَقْصودُ بالنَّاسِ "الجِنْسُ؛ إذ هو آية لمن عاصره ولمن يأتي

(1) السمين، الدر المصون: 2/562.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/22.

بعدهم إلى يوم القيامة"[1]، لا قَوْمُ المارِّ عَلى القَرْيَةِ، فهُوَ آيَةٌ عامَّةٌ لجَميعِ النَّاسِ، ودَليلُ ذَلِكَ، أَنَّ اللهَ جَعَلَهُ آيَةً للنَّاسِ في القُرْآنِ الكَريمِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ، وجَعَلَهُ آيَةً للنّاسِ في مَسْأَلَةٍ عَامَّةٍ لا تَخُصُّ أَحَدًا دونَ أَحَدٍ وهِيَ البَعْثُ، فحَمْلُ النَّاسِ عَلى الجِنْسِ حَقيقَةً، هُوَ المُتَبادِرُ الصَّحيحُ، وهُوَ المُلائِمُ للسِّياقِ، والمَوْضوعِ، وهُوَ ما يُؤَيِّدُهُ انْتِفاءُ أَدِلَّةِ أَنْ يَكونَ التَّعريفُ لمَعنًى آخَرَ. وتحتمل: "الألف واللام في: للناس، العهد إن عنى به مَن بقي مِن قومه، أو مَن كان في عصره"[2].

تعريف (الناس) للجنس ليشمل عمومهم، أو للعهد والمراد مَن بقي مِن قومه، أو مَن كان في عصره

نوع التَّعْريفُ في ﴿ٱلْعِظَامِ﴾:

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلْعِظَامِ﴾ عِوَضٌ عَنِ المُضافِ إِلَيْهِ المَحْذوفِ[3]، ويعني بالعظام عظام نفسه، أو: عظام حماره، أو عظامهما؛ والأظهر في هَذا السِّياقِ أَنْ يَكونَ المَقْصودُ بالعِظامِ عِظامَ الحِمارِ المَذْكورِ آنِفًا، وما قيلَ بأَنَّهُ عِظامُ النّاسِ البالِيَةِ، فلا دَليلَ عَلَيْهِ مِنَ النَّظْمِ الكَريمِ، ويعضده قوله معقّبًا بالفاء: ﴿فَٱنظُرْ﴾ إلى آخره، إذ يدلُّ على أنّ العظام لا يُراد بها عظام نفسه[4].

تعريف العظام للعهد ويراد به عظام نفسه، أو عظام الحِمارِ، أو عظامهما

نكتة التعبير بـ ﴿كَيْفَ﴾:

وكيف في قَوْلِهِ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ لتَّأْكِيدِ مَا قَبْلَهَا، وَتَحْقِيقِه[5].

التعبير بـ(كيف) للتأكيد، والتحقيق

التَّكامُلُ الدَّلالِيُّ في القِراءَتَيْنِ:

اخْتَلَفَ القُرَّاءُ في قِراءَةِ: ﴿نُنشِزُهَا﴾؛ فقَرَأَها ابْنُ عامِرٍ والكوفِيُّونَ بالزَّايِ المَنْقُوطَةِ، وقَرَأَها الباقُونَ بالرَّاءِ المُهْمَلَةِ[6]، فمَعْنى الآيَةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305.
(3) السمين، الدر المصون: 2/568.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/37.
(5) الزركشي، البرهان: 4/331.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/231.

النُّشوزُ ارْتِفاعُ العِظامِ وتَرْكيبُها، والنَّشْرُ إحياؤُها، فقِراءَةٌ أشارَتْ إلى مَبْدَأِ الأَمْرِ، والثّانِيَةُ إلى مُنْتَهاهُ

عَلى قِراءَةِ الكوفِيِّينَ والشّامِيِّ: رَفْعُ العِظامِ بَعْدَ هُمودِها والْتِصاقِها بالأَرْضِ، وتَرْكيبُ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، ومَعْناها عَلى قِراءَةِ البَقِيَّةِ: نُحْيِيها بَعْدَ مَوْتٍ، مَأْخوذٌ مِنَ النَّشْرِ الَّذي يُقابِلُ الطَّيَّ، وأَنْشَرَ اللّهُ المَيِّتَ ونَشَرَهُ: أَحْياهُ، وكان بَعْضُ بَني الحارِثِ يَقولُ: كان بِهِ جَرَبٌ فنُشِرَ، إذا عادَ وحَيِيَ[1]. وحُجَّةُ مَنْ قَرَأَ بالرّاءِ المُهْمَلَةِ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ [عبس: 22]، فالإِنْشازُ هُوَ رَفْعُ العَظْمِ قَليلًا قَليلًا حَتّى يَتَرَكَّبَ ويَكْتَمِلَ، فكَأَنَّهُ وَقَفَ عَلى نَباتِ العِظامِ الرُّفاتِ، وخُروجِ ما يوجَدُ مِنْها عِنْدَ الاخْتِراعِ، والإِنْشارُ إعادَةُ الحَياةِ إلى العِظامِ[2]، فالعَلاقَةُ التَّكامُلِيَّةُ بَيْنَ القِراءَتَيْنِ تَظْهَرُ في أَنَّ إِنْشازَ العِظامِ كانَ أَوَّلَ الإِحْياءِ، وإِنْشارَها آخِرُه، فالعِظامُ بَدَأَتْ تَرْتَفِعُ شَيْئًا فشَيْئًا، حَتّى تَكامَلَتْ فنُشِرَتْ فسَرَتْ فيها الحَياةُ، فقِراءَةٌ أَشارَتْ إلى مَبْدَأِ الأَمْرِ، والثّانِيَةُ إلى مُنْتَهاهُ.

صيغَةُ المُضارِعِ في ﴿نُنشِزُهَا﴾:

التعبير بالمضارع تَصْويرٌ للمَشْهَدِ الغَيْبِيِّ عَنِ المُخاطَبِ؛ زِيادَةً في إيمانِهِ وتَسْليمِهِ

للفِعْلِ المُضارِعِ أَثَرُهُ الكَبيرُ في إثارَةِ الخَيالِ لَدى المُخاطَبِ، وقَدْ تَرَكَ فِعْلُ ﴿نُنشِزُهَا﴾ تَصْويرًا بَديعًا لكَيْفِيَّةِ إحْياءِ عِظامِ الحِمارِ، وهَذا التَّصْويرُ مِنْ شَأْنِهِ تَحْريكُ الذِّهْنِ لتَصَوُّرِ حالِ العِظامِ في الأَرْحامِ، وكَيْفَ أَنَّ الَّذي رَفَعَها مِنَ الأَرْضِ، يَرْفَعُها في الأَرْحامِ، مِمَّا يَزيدُ قَلْبَ المُؤْمِنِ تَسْليمًا.

بلاغةُ تعالقِ الاستعارات:

تَنَوُّعُ الاسْتِعارَةِ دَليلُ ثَراءِ البَيانِ القُرْآنِيِّ

تَتَنَوَّعُ أَساليبُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في إبْرازِ جَمالِ المَعاني، وبَهاءِ المَباني، ففي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ زاحَمَتِ الاسْتِعارَةُ الاسْتِعارَةَ، وتَعَدَّدَتْ وتَعالقتْ باعْتِبارِ زاوِيَةِ النَّظَرِ إِلَيْها، وكانَ لكُلِّ اسْتِعارَةٍ جَمالُها في النَّفْسِ، وأَثَرُها في الحِسِّ، ففي الآيَةِ نَوْعَا اسْتِعارَةٍ، مَكْنِيَّةٌ وتَصْريحِيَّةٌ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نشر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/478، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/351.

الاِسْـتِـعـارَةُ المَكْنِيَّةُ

شَبَّهَتِ الآيَةُ العِظامَ بجَسَدِ الإنْسانِ، واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطى به العظم؛ فحَذَفَتِ المُشَبَّهَ بِهِ، وذَكَرَتْ لازِمًا مِنْ لَوازِمِهِ وهُوَ فِعْلُ الكَسْوِ، فإنَّ العَظْمَ يُنْبِتُ اللَّحْمَ، ولا يُكْسى بِهِ، تَشْبيهًا بسَتْرِ الإنْسانِ جَسَدَهُ باللِّباسِ، عَلى سَبيلِ الاِسْتِعارَةِ المَكْنِيَّةِ. وهي استعارة في غاية الحسن، إذ هي استعارةُ عَيْنٍ لِعَيْنٍ[1].

الاِسْـتِـعـارَةُ التَّصْرِيحِيَّةُ

شَبَّهَتِ الآيَةُ اللَّحْمَ باللِّباسِ السَّاتِرِ، ثُمَّ حَذَفَتِ المُشَبَّهَ، وصَرَّحَتْ بالمُشَبَّهِ بِهِ، بجامِعِ الظُّهورِ في كُلٍّ مِنَ اللِّباسِ واللَّحْمِ، عَلى سَبيلِ الاِسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّةِ، والمُرادُ باللَّحْمِ هاهُنا ما يَشْمَلُ اللَّحْمَ والشَّحْمَ والشَّعَرَ؛ لَكِنَّهُ اكْتَفى بذِكْرِهِ لأَنَّهُ أَصْلُ البَقِيَّةِ، وإذا أُطْلِقَ فُهِمَ المُرادُ.

إيثارُ اسْتِعْمالِ الفِعْلِ (كَسا):

في استعمال الفعل إشارَةٌ إلى قُبْحِ العُرْيِ، وفَضْلِ السِّتْرِ

إيثارُ فِعْلِ ﴿نَكْسُوهَا﴾ عَلى غَيْرِهِ مِنَ الأَفْعالِ؛ للإشارَةِ إلى قُبْحِ العُرْيِ، وفَضيلَةِ السِّتْرِ، فما أَصابَتِ الفَضيلَةُ شَيْئًا إلَّا حَسَّنَتْهُ وجَمَّلَتْهُ، ولَوْ كانَ عَظْمَ حِمارٍ، فلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخالِفونَ طَريقَ الفَضيلَةِ، أَنْ تَفْضُلَهُمْ عِظامُ الحَميرِ، فلا تَكْمُلَ حَياتُهُمْ، ولا تَجْمُلَ نُفوسُهُمْ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالنَّظَرِ وتَكْرارِهِ:

النَّظَرُ تَقْليبُ البَصَرِ والبَصيرَةِ، وكُرِّرَ لفَهْمِ كُلِّ مَعْنًى عَلى وَجْهٍ مُسْتَقِلٍّ

تَكَرَّرَ الأَمْرُ بالنَّظَرِ في الآيَةِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، الأولى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ﴾، والثَّانِيَةُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، والثَّالِثَةُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ﴾، والأَمْرُ بالتَّكْرارِ دَليلُ العِنايَةِ بالاِعْتِبارِ، فإنَّ المَثَلَ قائِمٌ عَلى اعْتِبارِ المُشاهَدِ للوُصولِ إلى الحَقيقَةِ المُسْتَبْعَدَةِ، والنَّظَرُ هُوَ "تَقْليبُ البَصَرِ والبَصيرَةِ لإدْراكِ الشَّيْءِ ورُؤْيَتِهِ"[2]، فلَيْسَ المُرادُ بالنَّظَرِ مُجَرَّدَ الإبْصارِ، بَلِ الإدْراكَ ومَعْرِفَةَ الأُمورِ عَلى حَقيقَتِها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ، وهَذا سِرُّ التَّعْبيرِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/306.
(2) الراغب، المفردات، ص: 812.

بالنَّظَرِ وتَكْرارِهِ، فلَوْ لَمْ يُكَرَّرْ لفُهِمَ أَنَّ المَطْلوبَ النَّظَرُ الكُلِّيُّ للجَميعِ، ولَوْ جاءَ النَّظْمُ: (فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وإلى حِمارِكَ . . وإلى العِظامِ) لَصَحَّ المَعْنى، لَكِنَّهُ يَكونُ قاصِرًا عَنِ المَقْصودِ، وهُوَ إفْرادُ كُلِّ جُزْءٍ مِنَ المَطْلوبِ تَأَمُّلُهُ بالنَّظَرِ الدَّقيقِ؛ للوُصولِ إلى المَعْنى الأَنيقِ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى الطَّعامِ والشَّرابِ عَلى حالِهِما وعَدَمِ عَوَزِهِما لأَسْبابِ البَقاءِ مُدَّةَ اللُّبْثِ الطَّويلِ، يَخْتَلِفُ عَنْ أَسْبابِ بَقاءِ الحِمارِ حَيًّا، أَوْ مَوْتِهِ، والنَّظَرُ إلى كَيْفِيَّةِ إحْياءِ الحِمارِ، يَخْتَلِفُ عَنِ النَّظَرِ إلَيْهِ وهُوَ مَنْخورُ العَظْمِ، فلِذَلِكَ أُمِرَتِ الآيَةُ بأَنْ يَكونَ النَّظَرُ مُتَّجِهًا إلى كُلِّ مَنْظورٍ باسْتِقْلالٍ، وهَذا فيهِ مَزيدُ عِنايَةٍ ورِعايَةٍ، لإدْراكِ الحَدَثِ، والعِنايَةِ بتَفاصيلِهِ، فإنَّ العِلْمَ بتَفاصيلِ الأَشْياءِ ومَقاديرِها، لَيْسَ كالمَعْرِفَةِ المُتَعَجِّلَةِ.

وجه التكرار أنّ كلّ واحد منها خارق عظيم، ومعجز بالغ، ولتعالق معناها بعضها ببعض

وتكرر الأمر بالنظر إلى الطعام والشراب في الثلاث الخوارق، ولم ينسق نسق المفردات؛ لأن كل واحد منها خارق عظيم، ومعجز بالغ، وبدأ أولاً بالنظر إلى العظام والشراب حيث لم يتغيرا على طول هذه المدة، لأن ذلك أبلغ، إذ هما من الأشياء التي يتسارع إليها الفساد، إذ ما قام به الحياة وهو الحمار يمكن بقاؤه الزمان الطويل، ويمكن أن يحتش بنفسه ويأكل ويرد المياه. ثم أَعْقَبَهُ بالنظر إلى مصاحبه وهو الحمار، فجاء النظر الثالث توضيحاً للنظر الثاني، من أي جهة ينظر إلى الحمار، وهي جهة إحيائه وارتفاع عظامه شيئاً فشيئاً عند التركيب وكسوتها اللحم، فليس نظراً مستقلاً، بل هو من تمام النظر الثاني، فلذلك حَسُنَ الفَصْلُ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ بقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[1].

التّعبير بالفاء للإيذان بظُهورِ تَحَقُّقِ المَحْذوفِ في اسْتِغْنائِهِ عَنِ الذِّكْرِ، وسُرْعَةِ وُقوعِهِ

بَلاغَةُ الفاءِ الفَصيحَةِ:

الفاءُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هِيَ الفَصيحَةُ، وهِيَ تُفْصِحُ عَنْ مَعْنًى مُقَدَّرٍ يَسْتَدْعيهِ الأَمْرُ المَذْكورُ، وسِرُّ حَذْفِ المُقَدَّرِ للإيذانِ بظُهورِ تَحَقُّقِهِ واسْتِغْنائِهِ عَنِ الذِّكْرِ، وللإشْعارِ بسُرْعَةِ وُقوعِهِ كأَنَّهُ قيلَ: فأَنْشَرَها اللهُ تَعالى،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/306.

وكَساها لَحْمًا، فنَظَرَ إِلَيْها، فتَبَيَّنَ لَهُ كَيْفِيَّتُهُ، فلَمَّا تَبَيَّنَ ذَلِكَ، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

جَمالُ الاِحْتِمالِ في بابِ التَّنازُعِ:

اشْتِمالُ الفِعْلِ عَلى الدَّلالاتِ السَّابِقَةِ واللاَّحِقَةِ، مِنْ جَمالِ الاِتِّساعِ، وجَلالِ الاِتِّساقِ

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في تَقْديرِ الفاعِلِ لفِعْلِ ﴿تَبَيَّنَ﴾، فمِنْهُمْ مَنْ قَدَّرَهُ مِنَ السِّباقِ، أَيْ: فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُ الإِحْياءِ بَعْدَ الإِماتَةِ وكَيْفِيَّتُهُ، ومِنْهُمْ مَنْ قَدَّرَهُ مِنَ اللَّحاقِ: أَيْ: فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ اقْتِدارُ اللهِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، واحْتِمالُ تَقْديرِ الفاعِلِ سِباقًا ولَحاقًا يَدُلُّ عَلى جَمالِ النَّظْمِ القُرْآنيِّ، واتِّساعِ دَلالَتِهِ؛ لاشْتِمالِ التَّبَيُّنِ عَلى ما وَرَدَ في السَّابِقِ واللاَّحِقِ، وإِنْ كانَ هَذا يَدْخُلُ في بابِ التَّنازُعِ النَّحْوِيِّ، إِلَّا أَنَّ أَثَرَهُ البَيانيَّ لا يُنْكَرُ، فحَمْلُهُ عَلى التَّنَوُّعِ المَقْصودِ، أَوْلى مِنْ حَمْلِهِ عَلى التَّرْجيحِ، لما في ذَلِكَ مِنْ جَمالِ الاِتِّساعِ، وجَلالِ الاِتِّساقِ.

التَّكامُلُ في القِراءاتِ:

تَصْويرُ سُرْعَةِ الإِسْتِجابَةِ، فكَأَنَّ الأَمْرَ والإِسْتِجابَةَ لَهُ مُتَّحِدانِ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ

اخْتَلَفَ القُرّاءُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فقَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائِيُّ بالوَصْلِ، وإِسْكانِ الميمِ عَلى الأَمْرِ، وقَرَأَ الباقونَ بقَطْعِ الهَمْزَةِ، والرَّفْعِ عَلى الخَبَرِ[2]، فقِراءَةُ الأَخَوَيْنِ هِيَ القِراءَةُ الآمِرَةُ تَوجيهًا وإِرْشادًا وتَعْليمًا، والقِراءَةُ الأُخْرى قِراءَةُ الاِسْتِجابَةِ للتَّوْجيهِ والإِرْشادِ والتَّعْليمِ، فقِراءَةٌ دَلَّتْ عَلى الأَمْرِ، وأُخْرى دَلَّتْ عَلى الاِسْتِجابَةِ، قِراءَةٌ دَلَّتْ عَلى البِدايَةِ، وأُخْرى دَلَّتْ عَلى المَآلِ، وتَكْمُنُ بَلاغَةُ القِراءَتَيْنِ في تَصْويرِ سُرْعَةِ الاِسْتِجابَةِ، فبِمُجَرَّدِ أَنْ أُمِرَ اسْتَجابَ، فكَأَنَّ الأَمْرَ والاِسْتِجابَةَ مُتَّحِدانِ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ، وهَذا مِنْ أَسْرارِ التَّعْبيرِ بالقِراءاتِ المُخْتَلِفَةِ لَفْظًا عَنِ المَعاني القُرْآنيَّةِ، وهُوَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكالِ بَلاغَةِ القُرْآنِ المُعْجِزَةِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/23.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/231.

ويجوز أن تكون القـراءة أمـرًا بالعلم، أو عَلى سَبيلِ التَّجْريدِ مُبَكِّتًا لَها

ويمكن أنْ يُحْمَلَ قوْلِه تَعالى: ﴿ٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عَلى قِراءَةِ حَمْزَةَ والكِسائِيِّ بهَمْزَةِ الوَصْلِ، عَلى مَعْنَيَيْنِ:

الأَوّلُ: أَنْ تَكونَ أَمْرًا مِنَ اللهِ تَعالى للمُخاطَب أَنْ يَعْلَمَ.

الثّاني: أَنْ تَكونَ خِطابًا مِنَ الرَّجُلِ لنَفْسِه، "عَلى سَبيلِ التَّجْريدِ مُبَكِّتًا لَها، مُوَبِّخًا عَلى ما اعْتَراها مِنْ ذَلكَ الاسْتِبْعادِ"[1]، والمَعْنَيانِ مُحْتَمِلانِ، وحَمْلُها عَلى التَّجْريدِ قَوِيٌّ؛ لمُعاضَدَةِ القِراءَةِ الأُخْرى لَها، فكَأَنَّهُ قالَ: اعْلَمْ! ثُمَّ قالَ مُقِرًّا: أَعْلَمُ، وهَذا مِنْ حِوارِ الإِنْسانِ لذاتِهِ إِقْرارًا واعْترافًا.

إِيثارُ صيغَةِ المُضارِعِ:

التّعبير بالمضارع وَعْدٌ باسْتِحْضارِ الـعِـلْـمِ عَـلى الدَّوامِ

آثَرَتِ الآيَةُ صيغَةَ المُضارِعِ في قِراءَةِ الجُمْهورِ؛ "للدَّلالَةِ عَلى أَنَّ عِلْمَهُ بذَلكَ مُسْتَمِرٌّ، نَظَرًا إِلى أَنَّ أَصْلَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، بَلْ إِنَّما تَبَدَّلَ بالعِيانِ وَصْفُهُ، وفيهِ إِشْعارٌ بأَنَّهُ إِنَّما قالَ ما قالَ بِناءً عَلى الاسْتِبْعادِ العادِيِّ، واسْتِعْظامًا للأَمْرِ"[2]، وفي التَّعْبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ عِدَةٌ بأَنَّهُ سيَبْقى مُسْتَحْضِرًا أَثَرَ العِلْمِ بأَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ؛ لدَلالَةِ المُضارِعِ عَلى تَجَدُّدِ العِلْمِ، وما في ذَلكَ التَّجَدُّدِ مِنَ الارْتِقاءِ والاقْتِرابِ.

بلاغة توكيد الخبر:

وجـه الـتـوكـيـد إزالـة الشكّ من النّفس

وسُعي في قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلى توكيد الخبر بلفظ ﴿أَعْلَمُ﴾ الدالّ على الاستيقان، والإيمان، والاعتقاد[3]، و﴿أَنَّ﴾، وباللفظين الدّالّين على الاستغراق والشمول: ﴿كُلِّ﴾، و﴿شَيْءٍ﴾؛ "لإزالة الشكّ الذي كان في نفسه قبل أن يريه الله تلك الآيات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهيّة"[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/24.
(3) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 2/964.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّبْث والمُكْث:

يَدُلُّ لَفْظُ المُكْثِ واللَّبْثِ عَلى الإقامَةِ، طالَتْ أَمْ قَصُرَتْ، والفَرْقُ بَيْنَهُما أَنَّ اللَّبْثَ هُوَ الإقامَةُ الزَّمانِيَّةُ مَلْحوظًا فيها المَكانُ، والمُكْثُ هُوَ الإقامَةُ المَكانِيَّةُ مَلْحوظًا فيه الزَّمانُ، فالعِبْرَةُ بالتَّغْليب، وغالِبُ اسْتِعْمالِ اللَّبْثِ في القُرْآنِ الكَريمِ للإقامَةِ الزَّمانِيَّةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: 19]، وقالَ: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]، وقالَ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، وقالَ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: 69].

أَمَّا المُكْثُ فاسْتُعْمِلَ للإقامَةِ المَكانِيَّةِ، قالَ تَعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [الرعد: 17]، وقالَ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: 3]، وقالَ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: 22]، وقالَ: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10]، وقالَ: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: 29]، وقالَ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: 77].

وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: 106]، فهو من المُكث الدالِّ عَلَى تَوَقُّفٍ وَانْتِظارٍ. وَمَكَثَ مَكْثًا وَمُكْثًا وَرَجُلٌ مَكِيثٌ: رَزِينٌ غَيْرُ عَجُولٍ. وَمَكَثَ وَمَكُثَ وَالتَّمَكُّثُ: الانْتِظَارُ[1]. ومَعْناهُ: لتقرأه على الناس على تُؤَدة، فتُرتِّله وتبيِّنه، ولا تعجَل في تلاوته، فلا يُفْهم عنك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكث).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»